العددِ 21A ايار 2026
NO.21A May 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

بلاغةُ التناسبِ السياقيِّ في بنيةِ القسمِ في القرآن الكريم

م.د.علاءغالي حايف الشمري

alaa.ghaly@uoalfarahidi.edu.iq

جامعة الفراهيدي/ كلية الادارة والاقتصاد

ملخص البحث

عنوان البحث: بلاغة التناسب السياقيّ في بنية القسم في القرآن الكريم.

إنَّ هذا البحث يُعنى بدراسة بلاغة التناسب السياقيّ في بنية القسم في القرآن الكريم من منظور بلاغيّ، فهو يستند إلى علم المناسبة، وفق منظومة السياق، فيركز على تتبع سياقات التناسب بين عناصر بنية القسم القرآني.

ويسعى إلى الكشف عن جماليات التناسب السياقي لبنية القَسَم القرآني، منطلقاً من حقيقةِ أَنَّ القسم في القرآن الكريم يتجاوز وظيفة التوكيد المجرَّد، ليشكِّل نسقاً أُسلوبيّاً، وبنية لغوية متماسكةً، تتآلف وتتناسق فيها أَركان القسم، ويرتبط فيها المُقسم به بجواب القسم، ارتباطاً سياقيّاً، لخدمة الوحدة الموضوعية للتعبير، ابتداءً من الجملة ثم الآية ثمَّ السورة .

فالبحثُ يسلط الضوء على بلاغة بنية القَسَم القرآني، متخذاً من السياق وعلم المناسبات إطاراً مرجعياً للدراسة، وهو يسعى إلى إثبات أن القَسَم القرآني بنية لغوية معجزة تتجاوز التوكيد إلى تحقيق التلاحم الموضوعي والاتساق الأُسلوبيّ البلاغيّ .

وقد اتبعتُ في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي؛ إذ قمتُ بتأصيل مفهوم التناسب، ومفهوم السياق نظرياً، ثُم قمتُ بتتبّع مواضع القسم في القرآن الكريم، ثمّ اخترتُ عدداً من الآيات القرآنيَّة المتضمّنة للقسم وحللتها في ضوء مناسبة السياق.

وقد توصلّتُ إلى أنَّ العلاقة بين أَركان القَسَم علاقة تناسبية مُحكمة، تتنوع بين التضاد، والتدرج التاريخي، والاستدلال العقلي؛ تبعاً لمناسبة السياق ومقتضى الحال؛ وظَهَرت أَيضاً دقةُ التوظيف البلاغي لنفي القسم، ولحذف جواب القسم، بما يخدم السياق بكلِّ أنواعه وتجلّياته.

الكلمات المفتاحية: بنية القسم القرآنيّ، السياق القرآنيّ، التناسب، البلاغة القرآنية.

The Rhetoric of Contextual Harmony in the Structure of Oaths in the Holy Quran

Lecturer Dr. Alaa Ghali Haif Al-Shammari

Department of Finance and Banking, College of Administration and Economics, Al-Farahidi University, Iraq.

alaa.ghaly@uoalfarahidi.edu.iq

Research Abstract

The Rhetoric of Contextual Harmony in the Structure of Oaths in the Holy Quran

This study investigates the rhetoric of the oath style (**Uslub al-Qasam**) in the Holy Quran through the lens of the **Science of Correlation** (**Ilm al-Munasabah**) and contextual analysis. It seeks to uncover the aesthetics of contextual harmony within the Quranic oath, arguing that it transcends mere emphasis to form a cohesive stylistic system.

The research posits that the pillars of the oath—specifically the object of the oath (**al-Muqsam bihi**) and its complement (**Jawab al-Qasam**) — are intrinsically linked to serve the thematic unity of the text across sentences, verses, and Surahs. Adopting an **inductive-analytical approach**, the study establishes the theoretical foundations of "harmony" and "context" before applying them to selected Quranic models.

The findings reveal that the relationship between the oath's components is a tightly woven harmonic structure that varies between contrast (**Tidad**), historical progression, and rational inference, depending on the requirements of the situation (**Muqtada al-Hal**). Furthermore, the study highlights the precision of employing negation and ellipsis (**omission**) within the oath to serve various contextual manifestations.

Keywords: Quranic Oath Structure, Context, Harmony, Ilm al-Munasabah, Quranic Rhetoric.

المقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين،والصلاة والسلام على خاتم النبيين،نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يُعدُّ القسمُ من أهمِّ الأنساق الأسلوبيَّة المؤكِّدة في التعبير اللغويِّ، وهو بنية لُغويَّة يستعملها المُتكلِّم لأغراض يقتضيها المقام، ويدعو إليها السياق، فيعطي المعنى قوَّة تأكيديَّة، ويُساهم في تماسك التراكيب. والقسم من أساليب التعبير القرآنيّ البارزة، إذ جاء لمقاصد دلاليَّة وبلاغيَّة، واقتضته مناسباتٌ أُسلوبيَّةٌ سياقيَّةٌ، فورد في سياقات متنوِّعة، وفقَ أنساقٍ تركيبيَّةٍ، ودلاليَّة متنوِّعة، فهو يُشكِّلُ مُنبِّهاً أُسلوبيَّاً، يستوقف المتلقِّي، ويُهيئ ذهنَه لتلقِّي الخطاب.

ومن صور بلاغة هذا الأُسلوب، التناسبُ السياقيُّ في بنية القسم، فنجد مناسبات دقيقة في عناصر التركيب القسميّ، كالمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، ومناسبة حرف القسم لسياقه المقاميّ والمقاليّ، ممَّا يُشكِّل نسيجاً أُسلوبيَّاً ودلاليّاً، يجعل من النصِّ وحدةً لسانيةً مُتماسكةً، لخدمة المقام، ومقصد التعبير، والغرض العامّ للنصِّ.

والقسم في القرآن الكريم- من حيث مواضعه- قد وَرَدَ على ضربين؛ فمنه ما جاء في افتتاح السور، مثل سورة الضحى، وسورة العصر، ومنه ما ورد في أثناء السورة، مثل ما ورد في سورة الحجر، وسورة مريَّم، ولكلٍّ من الضربين مُناسباته البلاغية والأُسلوبيَّة الخاصَّة التي ستظهر من خلال البحث.

المبحث الأول: البنية التركيبية للقسم ومفهوم التناسب والسياق. وفيه مطلبان:
المطلب الأول: جملة القسم مفهومها وأركانها:

أولاً-القسم لغةً:مادة(قسم) لها عدَّة معانٍ في اللغة العربيَّة؛ وقد أرجع ابنُ فارس هذه المعاني إلى أصلين صحيحين، هما:

أ-الجمال والحُسْن.ومن ذلك القسام، أي الجمال والحسن؛ فيقولون إنَّ فلاناً مقسَّم الوجهِ، إذا كان ذا حسنٍ وجمالٍ.

Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

ب- تجزئة الشيء وتفريقه. فالقسم مصدر قسَّمت الشيء، يقال إنَّ فلاناً أمسى أو أصبح مُتقِّسماً، أي: مشترك الهموم والخواطر، كأنَّ الهموم وخواطرها قد تقسَّمته؛ ومن ذلك سمَّوا اليمين قسماً، من القسامة؛ لأَنَّ الأيمانَ تُقسَّم على أهل المقتول وأوليائه إذا ادعوا أنَّ دمه على من يتَّهمونهم.(1)

وتسمية القسم ترتبط بانقسام الناس عند سماع الخبر إلى مكّذبٍ ومصدِّق، ممَّا يستدعي الحالُ تأكيد أحد الأمرين – التكذيب أو التصديق -، فصار الحالِفُ مُرجِّحاً لأحد القِسْمين،قال الواحدي:" ولمَّا كان التنازع يكثر في الإقسام، والدعاوى في الأشياء لا تنقطع إلَّا بالتوكيد، اشتقوا لفظه من القسم، وبنوها على أفعَل... وأرادوا أنَّه حاز القِسْم الذي وقع التنازع فيه، بذكر الله ".(2)

ثانياً- القسم اصطلاحاً:

القسم هو أحد أساليب توكيد الخبرِ، فهو أُسلوبٌ يؤكِّدُ به الخبرُ إيجاباً أو سلباً، قال الواحدي:" اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الذي يُخبر به الإنسان إما مثبتًا للشيء أو نافياً."(3) فالقسمُ يدلّ على اهتمام المتكلِّم بالخبرِ ويزيدُه قوَّةً أو يزيل الشكّ والتردُّد عن المتلقِّي، ويتكوَّن الخبرُ في بنيته التركيبيَّة من جملةٍ يؤكِّد بها المُتكلِّمُ جملةً أُخرى بواسطة المُقسم به وحرف القسم، قال ابنُ سيده:" اعْلَم أَن القَسَم هُوَ يَمِين يُقسِم بهَا الْحَالِف ليؤكد بهَا شَيْئا يُخبر عَنهُ من إِيجَاب أَو جحد وَهُوَ جملَة يُؤَكد بهَا جملَة أُخْرَى فالجملة المؤكَّدة هِيَ المُقْسَم عَلَيْهِ وَالْجُمْلَة المؤكِّدة هِيَ القسَم وَالِاسْم الَّذِي يدْخل عَلَيْهِ حرف القسَم هُوَ المُقْسَم بِهِ".(4)

ثالثاً- التركيبُ اللغويُّ لأُسلوبِ القسَمِ:

يتكونُ أُسلوبُ القسمِ من جملتين تؤكِّد إحداهما الأُخرى، فالأُولى –المؤكِّدة- هي جملة القسم، وهي جملة إنشائية، والثانية –المؤكَّدة- هي الجملة المُقسم عليها، أي جملة جوابِ القسَم، وهي خبريَّة؛ وبين الجملتين تداخل واتصال، حتَّى صارتا كالجملة الواحدة،قال الرضي:" الجملة القَسَمِيَّة يناسبها التخفيف إذ هي مع جوابها في حكم جملة واحدة"(5)، فالأَصل في جملة القسم أنَّها تكون إنشائيَّةً، وقد تأتي خبريَّة لفظاً لكن يُرادُ بها الإنشاء معنىً، فيكون اللفظُ خبراً، ولكنَّ المعنى إنشاء، إذ هو التزامٌ من المُتكلِّمِ بفعل المُقسَم عليه أو تركه.(6) وبناءً على ذلك فإنَّ أُسلوبَ القسم يتكون من جملتين هما:

1- جملة القسم، وتتكوَّنُ من ثلاثة أركان هي:

أ- فعل القسمِ، وهو فعلٌ يُعبَّر به عن القسم، وقد يكون مذكوراً أو محذوفاً.وهذه الأَفعال هي:أُقسم، وأَحلف،ويأتلي،ويؤلي.

ب- أَداة القسمِ- الواو أو الباء أو التاء-.

ج- المقسمُ به.

2- جملة جواب القسم، وتشمل المُقسَمَ عليه، والرابط اللفظيّ- اللام المفتوحة، وإنَّ، وإنْ، ولام كي، وبل- الذي يربط بين جملتي القسم وجوابه.

فأُسلوبُ القسمِ إذن يتكون من أركان أربعة هي: المقسم به، والمقسم عليه، وفعل القسمِ، وأَداة القسم. وقد اجتمعت هذه الأَركان الأَربعة في قوله تعالى:(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ.)[المعارج: ٤٠ – ٤١].

المطلب الثاني: التأصيل النظري لعلم المناسبة والسياق.

(1) ينظر: معجم مقاييس اللغة:مادة (قسم)،86/5-87، ومجمل اللغة: مادة(قسم)،1/ 752.

(2) التفسير البسيط:349/8.

(3) المصدر نفسه:349/8.

(4) المخصص:71/4.وينظر: الكتاب:104/3،والمخصص:71/4.

(5) شرح شافية ابن الحاجب:265/2.

(6) ينظر: البرهان في علوم القرآن:374/2، و 40/3.

إنَّ الأُسلوبَ القرآنيَّ هو أُسلوبٌ متناسق، يتكوَّنُ من مفردات وتراكيب، تربطها خيوطٌ دلاليَّةٌ دقيقةٌ؛ والموجِّه لذلك كلِّهِ هو السياق، ومناسباتُ التعبير، فهو بناء مترابطٌ ، وفق منظومةٍ دلالية، وتركيبيَّة مُتناسقة. ومن هنا جاء هذا المطلب لغرض التأصيل النظريّ لمفهوميّ علم المناسبة والسياق.

أولاً-المناسبة وأهميتها:

1- المناسبة لغة واصطلاحاً:

أ-المناسبة في اللغة: المناسبة مشتقة من (نَسَبَ)، وتدور مادتها في المعاجم العربيَّة حول الدلالة على المقاربة والمشاكلة بين شيئين أو أكثر.يقال: فلان يناسب فلاناً، أي يشاكله ويقاربه. فالمعنى اللغوي للمناسبة يدلُّ على الرابطة التي تجمع بين شيئين أو أكثر.قال الزبيدي:" يقالُ:بَين الشَّيْئَين مُنَاسَبَةٌ وتَنَاسُبٌ:أَي مُشَاكَلَةٌ وتَشَاكُلٌ."[7]

ب-**المناسبة في الاصطلاح:** وأمَّا المُناسبةُ في اصطلاحِ المفسِّرين والبلاغيين فقد عرَّفها البقاعي بقوله: " فعِلم مُناسبات القرآن علمٌ تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرُّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مُطابقةِ المعاني لمَا اقتضاه مِن الحالِ".[8]

2- أهمية علم المناسبات ومكانته عند العلماء:

إنَّ التناسبَ السياقيَّ هو الخيطُ الذي تنتظم فيه الكلمات والتراكيب القرآنية، حتَّى تكوِّن وحدةً دلاليَّة متناسقة متكاملة، فنجد هناك روابط تجمع عناصر النظم القرآني، وتشكِّل بذلك وجهاً من وجوه إعجازه.

ولقد أولى علماء التفسير والبلاغة هذا العلم عناية كبيرة ، وجعلوه وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ لأَنَّ هذا التناسب الدقيق في جميع مفردات وتراكيب وآيات وسوَر وموضوعات وقصص القرآنِ الكريم، مع تفرّق نزوله طوال ثلاثة وعشرين عاماً أمرٌ فوقَ قدرة البشر.قال الفخرِ الرازيّ:" أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط."[9]

وقد اعتنى بعلم المناسبة كثيرٌ من المفسرين، منهم:

1. **الإمام فخر الدين الرازي:** إذ يعُد تفسيره "مفاتيح الغيب" من أكثر التفاسير اهتماماً بدراسة الترابط بين الآيات والسور، وفي التماس وجه التناسب في أجزاء النظم؛ وقد كان كثيراً ما يسمي ذلك المناسبة أو التناسب، وأحياناً يسميه وجه الحكمة؛ وكان أيضاً يبحث وجه الحكمة في الانتقال من موضوع إلى آخر.
2. **الإمام برهان الدين البقاعي:** صاحب المصنف الأكبر والأدق في هذا الباب "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". ويقوم منهجه في هذا التفسير على فكرةٍ دقيقةٍ تتلخَّصُ في أنَّ لكلِّ سورة "عموداً" أو "مقصدًا "، وكل آية في السورة - بما فيها آيات القسم- تخدم هذا المقصد.
3. **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور** في تفسيره "التحرير والتنوير": إذ أبدع في الكشف عن تسلسل المعاني وتلاحم السياق، وكانت له نظرات ثاقبة في مناسبات القسم.

ثانياً: أنواع التناسب وعلاقته بأسلوب القسم:

للتناسب في القرآن الكريم صور متعددة، يهمنا منها هنا ما يتعلَّق بأُسلوب القسم وهي:

---

[7] تاج العروس:مادة(نسب):265/4.وينظر: معجم مقاييس اللغة: مادة (نسب):5/423-424.

[8] نظم الدرر:6/1.وينظر: البرهان في علوم القرآن:36/1.

[9] مفاتيح الغيب:110/10.وينظر: سراج المريدين في سبيل الدين:4/144-145.

1-التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها؛ وعلاقة هذا النوع من التناسب بأُسلوب القسم، أنَّنا نجدُ كثيراً من السورِ تبدأ بقسم، وتكون خاتمة السورة تصديقاً لهذا القسم؛ ومثال ذلك سورة الذاريات فقد بدأت بالقسم على وقوع القيامة،قال تعالى:﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا. فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا. فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا. فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا. إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[الذاريات: ١ – ٦].وختمت بتأكيد وقوعها ووعيد الكافرين الذين أنكروها، فقال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: ٦٠].

2- التناسب بين (المُقسَم به) و (المُقسَم عليه):وهذا النوع من التناسب يُعدُّ من دقائق النظم القرآنيّ، وهو يُشكِّل محوراً أسياسياً في هذا البحث، فالعلاقة هنا علاقة تناسبية سياقيَّة، تقوم على أوجه متعدِّدة من الإرتباط، يمكن إرجاعها إلى نوعين،هما:

أ- **الارتباط الاستدلالي الحِجاجي:** مثل التناسب الاستدلالي بين المحسوس والغيبي؛ وذلك بأَنْ يكون المُقسَم به - المحسوس المشهود- دليلاً يُستدلُّ به عقلاً على وقوع المُقسَم عليه – الشيء الذي في عالم الغيب-، كالاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

ب- **الارتباط التشابهي:**وهو أنْ تكون حالة المُقسَم به تشبه حالة المُقسَم عليه؛ كالقَسَم بـالضحى- وهو يدلُّ على نور بعد ظلام- على عناية الله بنبيه - وحي بعد انقطاع-؛ فكلاهما إشراق بعد فتور.

ثانياً:السياق تعريفه، ودوره في توجيه بلاغة القسم ودلالته.

1-**السياق لغةً:**السياقُ مصدرٌ من ساق يسوق وأصل السياق سِواق، فقلبت الواو ياءً مُراعاةً لمُناسبةِ الكسرة في السينِ[10]، وهو يدلُّ على معانٍ حسّيةٍ ومعنويةٍ، فيدلُّ على التتابعِ والاتّصالِ والتوالي والتسلسل والانتظام. قال ابنُ فارس:" السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشيء. يقال ساقه يسُوقه سَوقاً.والسَّيِّقة:ما استيق من الدوابِّ.ويقال سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته."[11]

فكلمةُ السياق وما اشتُقَّ منها - في هذه النصوص- تُشيرُ إلى معانٍ حسّيةٍ، تتمثَّل في التتابعِ والاتّصالِ والتوالي والتسلسل والانتظام؛ وقد استعملت في نصوصٍ أُخرى للإشارةِ إلى دلالات معنويَّةٍ، فقد جاء تعبيرُ سياق الحديثِ والكلامِ عند الزمخشري بقوله:" ومن المجاز:...وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يساق الحديث وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده."[12]

وهذه الدلالة المعنويَّة للسياق عند الزمخشريِّ هي أكثر اقتراباً من المعنى الاصطلاحيِّ للسياق، وقد جاء في المعجم الوسيط قولهم:" وسِيَاق الكلام تتابعه وأُسلوبه الَّذِي يجْرِي عليهِ"[13]؛ ولذلك فهناك ترابطٌ بين هذه المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحيِّ للسياق.

2-**السياق اصطلاحاً:**هناك عدة تعريفات للسياق،منها:

أ- يقول الدكتور تمام حسان:" قرينة السياق:وهي ما يكتنف السياق من قيود تركيبيَّة، أو أشراط إفادة أو هما معاً."[14]

ب- ويقول الدكتور أحمد سعد الخطيب:" السياق هو تتابع الكلام وانسجام التعبير في الدلالة على المعنى من خلال سابق يمهّد ولاحق يتمم أو يؤكِّد."[15]

ث-وعرَّفته الدكتورة عواطف كنوش بقولها:" فالسياق:تلك الأَجزاء التي تسبق النصَّ أو تليه مباشرةً، ويتحدد من خلالها المعنى المقصود ".[16]

---

[10] ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر:424/2.

[11] معجم مقاييس اللغة: 117/3.

[12] أساس البلاغة: 484/1.

[13] المعجم الوسيط:465.

[14] البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني:8.

[15] مفاتيح التفسير:472.

[16] الدلالة السياقية عند اللغويين:52.

والتعريفُ المُختارُ الذي سنعتمدُه في هذا البحث هو تعريف الباحث سعيد بن محمد الشهراني:فالسياق " هو:ما يحيط بالنصِّ من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر في فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال المُخاطِبِ والمُخاطَب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه."[17] وقد اخترنا هذا التعريفَ لوضوحه، ولأنَّه يشملُ نوعي السياقِ - السياق الخارجي، والسياق الداخلي-. فالسياقُ يمتدُّ في مساحةٍ كبيرةٍ من النصِّ وما يُحيط به، فيبدأ من العناصر اللغويَّة من جهةِ المفردات المُعجميَّة والمبانيّ الصرفيَّة والعلاقات التركيبيَّة النحويَّة، ويشمل الدلالات المتنوِّعة العقليَّة والعرفيَّة، ويمتدّ السياق ليشمل المقام الذي يُحيط بالخطاب بما يكتنفه من عناصر لغويَّة وغير لغويَّة.

أنواع السياق:

إنَّ الناظرَ في كلامِ العلماء والباحثين يجدُ أنَّ هناك عدَّةِ تقسيماتِ للسياقِ ترجعُ بمجموعها إلى نوعين، هما:

أ-السياق الداخلي(اللغوي)، ويُسمّى أيضاً سياقَ النصِّ:وهو العناصرُ اللغويَّةُ التي تكتنفُ الخطابَ، فهو يتكوَّن من مجموعِ السباقِ واللحاقِ. يقول الدكتور عبد الفتاح البركاوي:" السياق اللغوي وهو المستفاد من عناصر مقالية داخل النص".[18]

ب-السياق الخارجي(سياق الحال أو سياق المقام أو سياق الموقف): وهو يعني العناصر غيرِ اللغويَّةِ التي يتشكَّل على أساسِها النصُّ وتُفهم دلالتُهُ في ضوئها، فهو يشمل كُلَّ ما يحيطُ بالنصِّ من ظروف وعوامل خارجيَّة يتشكَّل على مُراعاتِها التعبيرُ، ويكونُ لها أثرٌ في فهمه وتوجيه دلالتِهِ، كحالِ المُخاطِب والمُخاطَب وزمان ومكان الخطابِ، وجوِّ النصِّ والغرض المسوق له. يقول الدكتور عبد الفتاح البركاوي:" السياق الخارجي وهو المستفاد من العناصر غير اللغوية التي تصاحب النص."[19]

فالمعنى لا بدَّ أَنْ يُفهمَ في ضوء السياق بنوعيه اللغويّ وغير اللغويّ، فإنّ السياقَ هو الذي يحدد المعنى، ويوضِّح دلالاته. وفي ما يتعلَّق بالقَسَم لا بدَّ من مراعاة السياق عند دراسته، فلا يمكن فهم القسم في بمعزل عن:

1-**سياق الحال :** فمثلاً القسم الذي يخاطب منكري البعث في مكة يختلف عن القسم الذي يخاطب المؤمنين.

2-**السياق اللفظي-السباق واللحاق-:** فمثلاً القسم بمواقع النجوم في سورة الواقعة جاء بعد ذكر أحوال الناس يوم القيامة، وقبل ذكر عظمة القرآن الكريم، فالسياق هنا يربط بين نزول النجوم وبين نزول القرآن الكريم، أو يربط بين مواقع النجوم بنظامها المحكم، وبين إحكام آيات القرآن الكريم ونظمها المعجز.

وبناءً على ذلك يمكن القول بأنَّ دراسة بلاغة القسم القرآني إنَّما تكون عبر منظومة السياق بأنواعه وتجلِّياته، ومُراعاة تناسب التعبير للسياق؛ فالقسم يُعدُّ سمةً أُسلوبيَّةً، ومُقدّمة كُبرى تُمهِّد للجواب. وهذا ما سنحاول تجليته في هذا البحث.

المبحث الثاني:المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.

إنَّ الناظرَ في أُسلوب القسم في القرآن الكريم يُلاحظ تنوُّعَ المُقسم به؛ فهو عُنصرٌ لُغويٌّ يتبدَّل من سياقٍ لآخر، وذلك تبعاً للغاياتِ التي يُريدها المُتكلِّم، ومراعاةً للسياقاتِ اللفظيَّة والمقاميَّة؛ ولذلك يمكن القول بأنَّه يُمثِّل دالَّاً لفظيّاً ذا قيمة أُسلوبيَّة مُستمدَّة من السياق اللفظيّ، أو من السياقات الخارجيَّة، كالسياقات الثقافية التي تكتنفُ الخطاب، أو من الحقائق الكونيَّة، أو القناعات الثابتة لدى المُخاطَبين.

وفي ضوء ذلك يمكننا أنْ نُفسِّر ادخال النحاة القسمَ في المؤكِّدات؛ وقد كانت عبارةُ سيبويه دقيقةً عندما أشارَ إلى أنَّ المُؤكّدَ في جملةِ القسم هو المُقسَمُ به نفسه، إذ قال:" فالمحلوف به مؤكَّد به الحديث كما تؤكّده بالحقِّ." [20] فقد صرَّح

[17] السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة:29.

[18] دلالة السياق في التراث وعلم اللغة الحديث:30.

[19] المصدر نفسه:30.

[20] الكتاب:3/497.

بأنَّ الذي يؤكَّد به الحديث في أُسلوب القسم إنَّما هو المحلوف به، وفي هذا إشارة مهمة تُخَصِّص ما شاع عند البلاغيين والنحاة مِن أنَّ أُسلوبَ القسمِ من أَساليب التوكيد، أو أنَّ القسم يُؤتى به لتأكيدِ الخبر؛ ولذلك يمكن القولُ: إنَّ اختيارَ المُقسَم به يُعدُّ مُنبِّهاً أُسلوبيَّاً، ووجهاً مِن أَوجهِ مُراعاة المقام في أنساق التعبيرِ، قال ابن برجان:" واعلم أنَّ الله عز وجل ما أقسم بقسم إلَّا مطابقاً معناه لمعانٍ في المقسَم من أجله". [21] فالعلاقة اللفظيَّة والمعنوية بين المقسَم به والمقسَم عليه تُعدُّ من أوجه بلاغة القسم القرآنيّ، إذ إنَّ اختيارَ المقسم به يأتي متناسباً مع طبيعة المعنى المراد تأكيده، ممَّا يُعطي الدلالةَ عمقاً، ويزيد في جمالية التعبير، ففي التعبير القرآني توافقٌ واتساقٌ دقيقٌ بين المقسم به وجواب القسم، يُشكِّل مؤشِّراً أُسلوبيَّاً وسمةً تعبيريَّةً، لكنَّ ذلك قد يخفى على غير المتأمِّل، إذ هو أَمرٌ يحتاجُ إلى حِسٍ لُغويِّيٍ، ونظرٍ ثاقبٍ، وتدبُّرٍ وتفكُّرٍ.

وقد سمَّى الفراهي القسمَ القرآنَّيَ (القسمَ الاستدلاليّ)، واستدلَّ عليه بشواهد من كلام العربِ شعراً ونثراً، فالقسم أَصله الاستشهاد، وقد يشترك مع ذلك تعظيم المُقسم به، وقد يأتي لمحض الاستدلالِ، فيأتي القسم على وجه الاستدلال بالمقسمِ به، لإقامة الحُجَّة على المُنكر[22]،وبذلك يُعدُّ وجهاً من أَوجه الحِجاج في الأُسلوب القرآنيِّ.

فدراسةُ القسمِ إذن يجب أَنْ تكونَ قائمةً على مُراعاة خصوصيَّةِ القسمِ في كلِّ سياق ورد فيه، وتتبُّع خيوط الربطِ الدقيق بين المقسم به والمقسم عليه، على وفق خصائص السياق، ومقتضيات المقام؛ وهو ما أَشارَ إليه بعض المُفسرين كالرازي وابن القيم والبقاعي والفراهي؛ وأَحسبُ أَنَّ هذه الملاحظة عند المفسرين كانت مُنطلقةً من نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ومن علم المناسبة؛ لذلك يجب بحث بنية القسم في ضوء التناسب، ولا يبحث أُسلوب القسم بمعزل عن هذه العلاقة التناسبية، التي تزيد التركيب تماسكاً واتساقاً، وتجلِّي تماسك السياق، وجماليات التعبير. وانطلاقاً من هذه الحقيقة سنحلِّل في هذا المبحث بعضَ نماذج القسم في القرآن الكريم، من أجل الكشف عن بلاغة التناسب بين المُقسَم والمقسم عليه.

المطلب الأول: التناسب الاستدلالي بين المحسوس والغيبي.

-قال تعالى:(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا. فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا. فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا. فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا. إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ.)[الذاريات: ١ – ٦].لقد افتتح الله سبحانه تعالى هذه السورة بالقسم بظاهرة كونيَّةٍ تدلُّ على عظيمِ قُدرتِهِ ودقيقِ حكمتِهِ، وذلك يتضمَّن تشريف هذه المخلوقات، والإشارة إلى ما في خلقها وتسخيرها من نعم الله على عباده، ومن الدلالة على الصلاح والهداية والإرشاد، ويتضمَّن أيضاً التذكيرَ بنعمة الله على عباده وذلك فيما أوجد بسببها. وللمفسِّرين مسلكان في تفسيرها: فمنهم من فسَّرها على أنَّها كلّها موصوفات لمُسمَّى واحد، ومنهم من فسَّرها على أنَّها ذوات مُختلفة.

فعلى تفسيرها على أنَّها كلّها صفات لموصوفٍ واحدٍ تكون هذه صفات للرياح في حركتها، فـ(الذاريات) هي الرياح باعتبارِ أنَّها تذرو قِطَع السحاب في السماء، وتذرو التراب أيضاً، فتهبّ ثُمَّ تُثير السحابَ وتسوقه. و(الحاملات وقراً) هي باعتبار أنَّها تحمل السحاب المُثقل بالغيث، و(الجاريات يُسراً) هي باعتبار جريانها في مهابِّها بهذا السحاب جرياً يسيراً هيِّناً ليِّناً. فالمُقسَمُ به هنا هي صفات أُقيمت مقامَ الموصوفات، إذ هو من إنزال اختلاف الصفات منزلةَ اختلاف الذوات، فطُويَ ذِكْرُ الموصوفات وأُقيمَت صفاتُها مقامَها، ولا يخفى ما في هذا الحذف البلاغيّ من تشويق السامع، ومن الإشارة إلى أنَّ القسم بتلك الموصوفات للتنبيه على ما فيها من هذه الصفات العظيمة، ففي هذا إيجاز بليغ، ولتذهب أذهان السامعين وأفهامهم في تقديره كلَّ مذهبٍ ممكن.

وهذه الصفاتُ قد عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بحرف الفاء، وهو عطفٌ يقتضي التجانس والتناسب بينها، فيمكن أَنْ تكونَ هذه الصفات لموصوفٍ واحد وهو الأكثر في الاستعمال للغويّ، ويمكن أَنْ تكونَ لموصوفات مختلفة إلا أَنَّها متجانسة متقاربة.[23] وهذا التفسيرُ هو الأنسب للسياق، قال ابن عاشور:" ومن رشاقة هذا التفسير أَنَّ فيه مناسبةً بين

---

[21] نظم الدرر:448/18.

[22] ينظر: إمعان في أقسام القرآن:32-45.

[23] ينظر:التحرير والتنوير:26 /336-337.

المقسم به والمقسم عليه... فإنَّ أحوالَ الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبث الأرواح فيها(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)."[24]

وعلى تفسيرُها على أنَّها موصوفات متنوعة يكون المراد بـ(الذاريات) الرياح التي تذروا في هبوبها التراب: (ذَرْوًا) بقوتها ولينها ولطفها.(فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا.) هي السُّحُب، التي تحمل معها الماءَ الذي يحيي اللهُ به البلادَ وينفعُ به العبادَ.(فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا.) هي السفن التي تجري في البحر، أو الكواكب والنجوم، التي تجري في السماء، في مجاريها ومنازلها المُقدَّرة لها، سيراً مُحكماً.(يُسْرًا) هي نعتٌ للمصدر المحذوف، أي تجري جرياً من صفته أنه ذو يُسْرٍ، فهي تجري بسهولةٍ ويسر، فتكون زينةً للسماء، ويهتدي بها الناسُ في الظلمات في سيرهم في البحرِ والبرِّ، وينظرون ويتأمَّلون في خلقها ويعتبرون بها فينتفعون.(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا.) هي الملائكة التي تُقسِّم الأُمورَ وتدبِّرها بتقدير الله وإذنه، فكلُّ ملكٍ منهم، قد كُلِّف بتدبير أمر من الأمور، لا يتعدَّى ما رُسِمَ له، وما حُدَّ وقدِّر له، وما أُمر به، لا ينقص منه شيئاً ،ولا يزيدُ عليه.[25] قال البيضاوي:" فإنْ حُملت على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلَّا فالفاء لترتيب الأفعال"[26] فعلى كِلا التفسيرين من الواضح أنَّها تدلُّ على قدرة الله سبحانه وتعالى وعظيم إحسانه وسرعة تدبيره.

وجواب القسم هو قوله تعالى:(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ.) [الذاريات: ٥ – ٦]. فاستدل سبحانه وتعالى بقدرتِهِ على هذه الأُمورِ التي يراها الناسُ من حولهم على قُدرتِهِ بأنْ يُحييَ الموتى ويبعثهم من قبورهم للحسابِ والجزاء.[27] فالقسم بهذه المخلوقات إنَّما فيه تنبيه للعبادِ على ما تشتمل عليه من إحكامٍ في الخلق، وما تنطوي عليه من أسرارٍ دالَّة على قدرة الله وحكمته ونعمه وآلائه، ففيه إشارةٌ إلى النظر والتأمُّل الذي يقودُ إلى الإيمان، ويؤدِّي إلى الانقيادِ للخالق، والإذعان له، وتصديقِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

ثُمَّ جاء في هذه السورة قسمٌ آخر في قوله تعالى: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ)[الذاريات: ٧ – ٩].فقد أقسم سبحانه وتعالى بـ (السَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ)، أي: ذات الطُرُق المُحكمة الحسنة، فإنَّ الحُبُك في أصله يدلُّ على إتقان الشيء وإحكامه، فهي تشبه في ذلك حبك الرمال، والمياه عندما يحركها نسيم الرياح وهي في الأنهار والغُدران.[28] فهذا القسم يشمل الطُرقَ المحسوسة التي هي مسارات النجوم والكواكب والمجرَّات في اختلافها وتنوّعها، والطرقَ المعقولة التي تُدرك وتُفهم بالبصيرة والنظر العقليّ.[29]

وجوابُ القسم هو قوله تعالى: (إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ) فالمشركون في قولٍ مُختلفٍ مُتناقضٍ يخالف بعضه بعضاً وينقضٍ كلُّ قولٍ من أقوالِهم الآخرَ، فمرَّة يقولون كاهن ومرَّةً يقولون ساحر ومرَّةً يقولون شاعرٌ، ومرَّةً يقولون مجنون، إلى غير ذلك من أقوالهم الباطلة المُختلفة المُتناقضة التي تنبع من شكِّهم وحيرتهم، وتدلُّ على ما هم فيه من الضلال والباطل.

فهذا الاختلاف في أقوالهم، دليل على بطلانها وفسادها، وفي المقابل فإنَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الحقّ متفقٌ متوافقٌ يشهد بعضُه لبعض بالحقِّ والصدقِ والحكمة، لا اختلاف فيه ولا تناقض.[30]

ثُمَّ قال تعالى:(يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) والهاء في (عنه) تعود على الإيمان، أي يُصرف عن الإيمان بالرسول وبما جاء به من الحقِ(مَنْ أُفِكَ)،يُقال:" أفكه يأفكه أفكاً أي قلبه وصرفه عن الشيء"[31] ؛ أي يُصرف عن الإيمان من هو مأفوك العقل، وهو كلُّ ضعيف الرأي والعقل، مصروف عن الوجه الحقِ الذي يجبُ أنْ يكونَ عليه.[32]

---

(24) التحرير والتنوير:239/26، وينظر :الرازي،1420 هـ،159/28-161.

(25) ينظر:إرشاد العقل السليم:136/8، وتيسير الكريم الرحمان:808.

(26) أنوار التنزيل وأسرار التأويل:146/5.

(27) ينظر:المصدر نفسه:5/:146.

(28) ينظر : الدرّ المصون:41/10، وتيسير الكريم الرحمن:808.

(29) ينظر:المفردات في غريب القرآن:217،وإرشاد العقل السليم:137/8.

(30) ينظر:تيسير الكريم الرحمن:808.

(31) الجامع لأحكام القرآن: 33/17.

(32) ينظر:المفردات في غريب القرآن:79، والدرّ المصون:41/10-42.

فهذا القَسَمُ هو لبيان اضطرابهم وتناقضهم في أَقوالهم التي يطعنون فيها في الدين، وهو يُشكِّل مُؤشِّراً أُسلوبيَّاً، يقع في مقام التذييل لِمَا سبق، فإِنَّ القسمَ الأَوَّل لإِثبات البعث والحساب والجزاء، وهذا القَسَم لإبطال اعتقاداتِهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة وأَقوالهم الضالة. ويُلحظ أَنَّ هناك تناسباً دقيقاً بين المقسم به وجوابه، فإِنَّ قولَهم مُتناقض مُختلف مُتنوِّع إِلَى طرائق كثيرةٍ، كما أَنَّ السماء ذات طُرُقٍ متنوِّعة، وهذا هو السرّ في أَنَّه وَصَفَ المقسم به؛ ليكون في ذلك الوصف إِشارة إِلى جواب القسم.(33)

- وقال تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)[النجم: ١ – ٥].والمُناسبةُ بين المُقسَم به والمُقسَم عليه تتجلَّى في عدَّة أَوجه، منها:

أ- إِنَّ الكلامَ لَمَّا كان في سياقِ إِثباتِ أَنَّ القرآنَ الكريمَ هو وحيٌ مُنزَّلٌ من اللهِ سبحانه وتعالى أَقسم بالنجم في عندما يهوي، فقال: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى.)، فحالُ نزول القرآن الكريم مُشابهٌ لحالِ النجمِ حين يهوي من السماء، فهو من التشبيه التمثيليّ، إِذ القرآن ينزل منيراً إِنارةً معنويَّة، والنجم ينزلُ منيراً إِنارةً حسِّيَّة، فهو إِذن تمثيلٌ للمعقولِ المعنويِّ بالمحسوسِ.(34)

ب-إِنَّ المراد بالنجم في هذا السياق النجوم والشُّهُب التي تُرمى بها الشياطين عندما تسترقُ السمعَ من السماء، وهذا القول مروي عن ابن عباس-رضي الله عنه-. فعلى هذا هو من تشبيه المحسوس بالمحسوسِ؛ فتكون المُناسبة أَنَّ اللهَ قد اختار القسم بهذه الآية الكونيَّة على أَنَّ الوحيَ محفوظٌ من الشياطين لا سبيل لها على استراقه أَو تحريفه، بل قد حُرِسَ من كُلِّ ما يمسُّه، وبهذا تظهر دقَّةُ التناسب السياقيُّ بين المقسم به والمقسم عليه، ويكون في المقسم به قيمةٌ حجاجيَّة وإِشارة أَسلوبيَّة إِلى جواب القسم.(35)

- وقال تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.)[القلم:١ – ٤]. أَقسم اللهُ تعالى بالقلم الذي هو من أَدوات البيان، وبما يُسطرُ به، فأَقسم بالكتابِ وبالآلةِ التي يُكتبُ بها. وقد جاء في تفسير القلم عدَّةُ أَقوالٍ، أَرجحها أَنَّه يشمل كُلَّ قلمٍ، سواء يُكتبُ به في السماء، أَو في الأَرضِ بأَيدي الناس، فهو اسمُ جنسٍ يشمل القلمَ الذي جرى به شرعه الله وقدره، والأَقلام التي يَكتبُ بها العبادُ.(36) وجواب القسم قوله تعالى: (مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.) فالمُقسَمُ عليه هو تنزيه الرسول ﷺ عمَّا يقوله فيه المُشركون من وصفه بالجنون، ثُمَّ القسم على إِثبات الثواب الجزيل له، والشهادة له بالخُلُق العظيم.

والمناسبة بين المُقسم به والمقسم عليه تتجلَّى في أَمرين، هما:

أ- إِنَّ هذا الكتاب الذي جاء به الرسول ﷺ والذي سطَّره القلمُ يدلُّ على صدقه وقوَّةِ عقله، وجميلِ خُلُقِهِ، ففيه من أَنواع العلوم والحكمة وجميل المواعظ، التي جاءت بأَبلغ تعبيرٍ وأَعلى بيان، فجاء الكتابُ سليماً في مبناه ومعناه، سالماً من التناقض والاختلاف، وقد تحدَّى به الناسَ أَنْ يأتوا بسورةٍ من مثله، فلو اجتمع العقلاءُ والبلغاءُ كلُّهم ما استطاعوا أَنْ يأتوا بمثله، ولو كانوا كلّهم على عقلِ أَعقلِ رجُلٍ منهم، فكيف يستطيعُ ذلك مجنونٌ ليس له عقل- على زعمهم الباطل-، فادِّعاؤهم هذا من أَظهر البهتان والإِفك والهذيان وأَقبحه؛ ففي المُقسَم به دلالةٌ واضحةٌ بيِّنةٌ على المقسم عليه، وشهادةٌ على صدق المُقسَم من أَجله، وكلُّ هذا إِنَّما حصل له ولمن آمن به واتبعه بنعمة الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك نفى عنه الجنون بنعمته عليه فقال:(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) ثُمَّ أَخبر عن هذا الكمال في دنياه وآخرته فقال:(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ) أي غير مقطوع بل هو دائم مستمر في جميع أَحوالِهِ، ثُمَّ قال تعالى:(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)، فشَهدَ له بالخُلُق العظيم، وذلك من أَعظم الآيات الدالَّة على نُبوَّته ورسالته وصدقهِ؛ فإذا كانت علومُ الناسِ وأَخلاقُهم مأخوذةً من(الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) القلم وما يسطرون، وكان خَلْقُ القلم وتعليمُهم الكتابة من إِنعام الله عليهم وإِحسانه إِليهم، فكيف يُنكرون إِحسانه وإِنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلَّم الذي أَعطاه ربُّه أَحسنَ العلوم, وأَزكى الأَخلاق، التي لا

---

(33) ينظر:التحرير والتنوير:340/26.

(34) ينظر:المصدر نفسه:27/91–92.

(35) ينظر:التبيان في أقسام القرآن:244.

(36) ينظر:الجامع لأحكام القرآن:18/224–225،والتبيان في أقسام القرآن:206.

تهتدي العقولُ إلى تفاصيلها من غير القلم ولا الكتابة، والنبيُّ صلى الله عليه وسلَّم أُمِّيٌّ، لا يكتبُ بالقلم، فهذا من أَعظم شواهد نبوته وآياتِ صدقه، لمن رزقه اللهُ فهمَها.[37]

ب-والمُناسبةُ الأُخرى تتجلّى في الإشارةِ إلى أنَّ ما قاله المُشركون من مقولاتِهم الباطلة في النبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم، هي مكتوبةٌ مسطورةٌ، سطَّرها الملائكةُ الحفظة وأثبتوها عليهم، وسوف يُحاسبهم الله سبحانه وتعالى عليها، وفي ذلك وعيدٌ شديدٌ لأُولئك المشركين، ومواساةٌ عظيمةٌ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلَّم وتأنيسٌ وتصبيرٌ له.

المطلب الثاني: التناسب التضادي والتقابلي.

من الأَنساق الأُسلوبيَّة في بنية القسم في القرآن الكريم ما يُمكن أَنْ نصطلحَ عليه بـ(التناسب التضادِّي والتقابلي)، فيأتي القسم بأشياء مُتضادَّة ومتقابلة كـ(الليل والنهار، والضحى والليل)، ليكون هذا القسم تمهيداً لجواب القسم الذي يتضمن مقارنة بين أشياء معنوية متضادَّة كـ(الإيمان والكفر)، فتكون الظواهر الكونيَّة كأنَّها مرآة تعكسُ أحوال النفوس، وما يدور فيها من أفكار، وما تنطوي عليه من عقائد وقناعات.

- ومن صورِ هذا التناسب السياقيِّ القسمُ في بداية سورة الضحى في قوله تعالى:ﭐ(وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[الضحى: ١ – ٥].فقد أَقسم الله تعالى بالضحى، وهو أَوَّل النهار وصدره حين ينتشرُ ضياؤه، فهو وقتُ نورٍ وإشراق، ثُمَّ أَقسم بالليل، فقال: (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى.) أي إذا ادلهَّم، فركد ظلامُ الليلِ، وسكن الناسُ، فأقسم بهاتين الآيتين العظيمتين الدالتين على ربوبيته وسعةِ رحمته وعظيمِ حكمته.[38]

وجوابُ القسمِ قوله تعالى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى. وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى. وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى).وهذا قَسَمٌ على اعتنائه برسوله وإكرامه له وإنعامه عليه، وأنَّه سوف يعطيه في الدنيا والآخرةِ ما يُرضيه، فهو قسم على نبوته وصحتها، وعلى حسن جزائه الذي ادَّخره له في الآخرة. وبالتأمّل تظهر المطابقة التامَّة بين القسم وجوابه؛ فنورُ الضحى الذي يأتي بعد ظلام الليل يُناسبُ نورَ النبوَّةِ والوحيِ الذي أتى بعد أن احتبسَ عنه مدَّةً من الزمنِ حتى قال المشركون (ودَّع محمداً ربُّه)، فكما أَنَّ ضوءَ النهار جلَّى ظلمةَ الليل، كذلك نورُ الوحي وافى بعد ظلمةِ احتجابِهِ وتأَخّرِه، فالذي فلق ظلمة الليل وأذهبها بضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الشرك والكفرِ والجهل وأزالها بنور النبوَّةِ والوحي، فأنزل القرآن الذي بدَّدَ نورُه كلَّ تلك الظلماتِ وأزالها، فتلكما ظلمةٌ ونورٌ حسّيتان، وهذان ظلامٌ ونورٌ معنويَّان. وبذلك يظهرُ للدارسِ حسنُ ارتباط المقسم به بالمقسم عليه، ويتجلّى ما في هذه الألفاظ والتراكيبِ من الجزالة وحسن النسَقِ، وما في معانيها من العمقِ الدلاليِّ.[39] قال النيسابوري:" وفيه أَنَّ الليلَ زمانُ الاستيحاش والنهار وقت الاجتماع والمعاش فكأنَّه قال: استبشر فإنَّ بعد الاستيحاش بسبب انقطاع الوحي يظهر ضحى نزول الوحي." [40]

- وقال تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [الشمس: ١ – ١٠]. يُعدُّ هذا القَسَمُ أَطولَ قَسَمٍ في القرآنِ الكريم، فقد أَقسم سبحانه وتعالى أحدَ عشرَ قسماً، ثمَّ جاء بعدها جوابُ القسَمِ. وفي هذا القسم تتابعٌ للأَدلَّةِ الكونيَّةِ التي تُلْفتُ النظرَ، وتجعل النفسَ تتأَمَّل في الحقيقة الكُبرى التي تضمَّنها جوابُ القسم. والملاحظ هذا التقابل بين الأشياء المُقسَم به، التي جاءت وفقَ بنيةٍ لغويَّةٍ متتابعةٍ في سياقٍ واحدٍ، فنجدُ التقابلَ بين(الشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض). ثُمَّ انتقال سياق القسم من الآفاق الكونيَّة إلى النفس البشريَّة: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا.)، فجاء في هذا القسم تقابلٌ آخر بين (الفجور والتقوى). قال ابن عاشور:" ثم ذُكرت النفس الإنسانية لأنَّها مظهر الهدى والضلال وهو المقصود...وابتدئ القسم بالشمس وأضوائها الثلاثة الأَصلية والمنعكسة لأَنَّ الشمسَ أَعظمُ النيرات التي يصل نور شديد منها للأَرض، ولما في حالها وحال

---

[37] ينظر:التبيان في أقسام القرآن:213.

[38] ينظر:إرشاد العقل السليم:169/9،وتيسير الكريم الرحمن:928.

[39] ينظر:التبيان في أقسام القرآن:72-74.

[40] غرائب القرآن ورغائب الفرقان:515/6.

أَضوائها من الإيماء إلى أنها مثل لظهور الإيمان بعد الكفر وبث التقوى بعد الفجور فإن الكفر والمعاصي تمثل بالظلمة والإيمان والطاعات ".(41)

وجواب القسم قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). ووجه التناسب بين المُقسَم به وجواب القسم أَنَّ بنيةَ القسم هنا تقوم على التقابل كما سبق توضيحه، وهي تتسم بسمةِ التغيّر والتقلّب(تلاها، جلاها، يغشاها). ففي كلِّ يومٍ الشمس تغيب ويأتي القمر، والنهار يتجلّى بعد الليل، ويأتي الليل فيغشى الأَرض بظلامه؛ فهذا التقلُّب والتنوُّع المتتابع في ظواهر الكونِ، يتناسب مع طبيعة النفس البشرية التي أَقسم بها، ويتناسبُ أيضاً مع جواب القسم، وفي ذلك إشارة إلى أَنَّ الإنسانَ لمَّا كان جزءً من هذا الكون الذي فيه كثير من الظواهر التي تقوم على الثنائيَّات الضدِّيَّة المزدوجة، فكذلك كانت نفسه فيها استعداد للظلمة (الفجور والكفر) واستعداد للنور(التقوى والإيمان)، ومثلما أَنَّ النهارَ يُجلِّي ظلامَ الليل، فإِنَّ التقوى تزكِّي النفس فيفلح صاحبها، وكما أَنَّ الليلَ يغشى الأَرضَ ويسترها، فإِنَّ المعصيةَ تدسُّ النفس، أي تُخفي محاسنها وتطمرها في الرذيلة وتوصلها للعذاب، وأيضاً يظهر جليَّاً أَنَّ استخدامَ لفظ:(دَسَّاهَا) في هذا السياق يتناسب تناسباً دقيقاً مع قوله تعالى:(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) أي يُغطِّيها ويُخفيها.

- وقال تعالى:(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى.)[الليل:١ – ١٠]. تُعدُّ هذه السورةُ أُنموذجاً دقيقاً من نماذج التناسب التضادِّي والتقابلي، ويتجلَّى ذلك من خلال النظر في البنية التركيبيّة والدلاليَّة للسورة، ويمكن تسميةُ هذا التقابل بـ(ثنائية النظام الكونيّ وسعي الإنسان). وقد جاء التقابل بين(الليل) عندما يعمُّ الخلائقَ بظلمته وستره، و(النهار) حين يتجلَّى للخلق بضيائه فيستنيروا بنوره، فأَقسم بهذين النقيضين اللذين لا يجتمعان في وقتٍ واحدٍ، على اختلاف مصير الناسِ وتنوّع أَحوالهم، فهو إذن قسمٌ بالزمان - الذي تَحدثُ فيه أَفعال الناس-. ثمَّ جاء التقابلُ الثاني بين (الذَّكر) و(الأُنثى) وهما شقَّا المخلوقات الحيَّة، ومنها الإنسان الذي خاطبه الله في هذه السورة، فالذكر والأُنثى يُكمل بعضهما بعضاً، ويتماثلان في أَصل السعي، ولكنَّهما يختلفان في الخِلقةِ والخصائص والوظيفة.

وقد اشتملت هذه الآيات في بنيتها التركيبيَّة على الاحتباك، إذ ذَكر المخلوق أولاً دلالةً على حذفه ثانياً، ثمّ ذَكر الخالق ثانياً دلالةً على حذف ذِكره أَوَّلاً. وجواب القسم في قوله تعالي:(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى.) وهو قَسَم على أَحوال الإنسان في سعيه في هذه الدنيا، وما يثمره هذا السعيُ في الآخرة، فهو يمثِّل الأَضداد في سلوك الإنسان وفي مصيره، فإِنَّ المعنى أَنَّ سعيكم مختلفٌ، فهو أَشتاتٌ متنوّعة.

ثُمَّ جاء في هذا السياقِ تفصيلُ هذا السعي الذي وُصف بأنه شتَّى، بأَنْ جعلَ جنسَ المُخاطبين على فريقين: الفريق الأَوَّل في قوله تعالى:(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى.).والفريق الثاني في قوله تعالى:(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى.) فالقَسَم إذن على تباين عمل الإنسان في الدنيا وعلى جزائه في العُقبى.

والتناسب السياقي في بنية القسم هنا يظهر بالتأمُّل في العلاقة بين المُقسم به وجواب القسم، الذي جاء بأُسلوب (اللفّ والنشر المرتَّب)؛ فكما أَنَّ الليل والنهار مختلفان في أَثرهما(ظلام ونور)، وكما أَنَّ الذكر والأنثى متباينان في خصاصهما الخَلْقيَّة، وما ينتج عن تلاقيهما مختلفٌ، كذلك سعيُكم أَيّها الناس مختلفٌ مُتباعد(إعطاء وبخل)،و(تصديق وتكذيب)، و(تقوى واستغناء)، ونتيجة هذا السعي المُختلف ثوابٌ وعقابٌ(يسرى وعسرى)، ففي هذا القسم دلالة واضحة على أَنَّه كما أَنَّ المتضادَّات في هذا الكون كالليل والنهار والظلام والنور لا تتساوى ولا تجتمع، فكذلك لا يستوي المؤمن والكافر والمحسن والمسيء في حالهم وفي مصيرهم؛ فطابق سبحانه بين القَسَم وجوابه أَحسنَ المطابقة، فذكر الزوجين (الذكر والأُنثى) الذي هما أَنواع الإنسان، وذكر الوقتين (الليل والنهار) اللذين فيهما يكون السعيُ، ليذكر اختلاف سعي المكلفين واختلاف جزائهم ومصيرهم. قال ابنُ عاشور:" ومناسبة المقسم به للمقسم عليه أَنَّ سعيَ الناس منه خير ومنه شر وهما يماثلان النور والظلمة، وأَنَّ سعيَ الناس ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار،كما ينتج

(41) التحرير والتنوير:367/30.

الذكر والأُنثى ذرية صالحة وغير صالحة...واختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام؛ لأَنَّ غرضَ السورةِ بيانُ البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة."[42]

المطلب الثالث: التناسب التصاعدي والتدرج المكاني.

من الأَنساق الأُسلوبيَّة لبنية القسم في القرآن الكريم التدرُّجُ في رُتبة المُقسَم به، إذ يُرتَّب وفق سلسةٍ زمانيَّةٍ أَو مكانيةٍ، مراعىً في ذلك التناسب السياقيّ، ممَّا يُهيئ ذهن المُتلقِّي لاستقبال جوابَ القسم.

ومن أَمثلة ذلك القسمُ في سورة التين، فقد استُهلَّت السورةُ بالقسمِ بأَربعةِ أَشياء، فقال تعالى: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.)[التين:١– ٣]. وابتداء الكلام بالقسم المؤكَّد فيه إِشارةٌ إِلى أَهمّية المقصد الذي سيق الكلامُ له، وطولُ القسم فيه تشويقٌ إِلى جوابِ القسم. والقسم بالتين والزيتون يُراد به الثمرتين المعروفتين، ويُرادُ به أَيضاً منبت هاتين الشجرتين - وهو أمرٌ له شواهد من لغة العرب-، فيكون القسم قد تناول الشجرتين والثمرتين ومنبتهما، وهو مكان ظهور رسالة عيسى عليه السلام. (وَطُورِ سِينِينَ.) هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام. ثم أَقسم الله تعالى بـ(البلد الأمين) وهو مكة مكان بعثة خاتم أَنبيائه ورسله نبيّنا مُحمَّد صلى الله عليه وسلّم. فترقَّى في هذا القسم من الفاضل إِلى الأَفضل فبدأ بموضع رسالة عيسى، ثُمَّ ذكر موضع رسالة موسى، ثم ختم بموضع رسالة محمَّد صلى الله عليه وسلَّم، وهذا ما ذهب إِليه جمهور المحقِّقين من المفسِّرين.[43] فإِذن هذه الأَشياء المُقسَم بها ليست مجرد فواكه أَو أَشجار أَو أَماكن، بل فيها إِشارة إِلى أَماكن الرسالات الكبرى في تاريخ البشرية:

1. (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ.) فيه إشارة إلى (بيت المقدس) وما حوله من أَرض الشام، التي هي منابت هذه الأَشجار، وهي مهبط رسالة عيسى عليه السلام.
2. (وَطُورِ سِينِينَ.) هو جبل الطور في سيناء، المكان الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وأَوحى له بـ(التوراة).
3. (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.) مكة المكرمة، مكان بداية ظهور الإِسلام، ومهبط رسالة النبيِّ مُحمَّد ﷺ.

وجواب القسم قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ.) [التين: ٤ -6].
قال ابنُ عاشور:" وفي ابتداء السورة بالقسم بما يشمل إرادة مهابط أَشهر الأَديان الإِلهية براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، أي خلقه علي الفطرة السليمة مدركا لأدلة وجود الخالق ووحدانية.وفيه إيماء إِلى أَنَّ ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أُصولِ شرائع الله كلِّها بقطع النظر عن اختلافها في الفروع."[44] وبذلك فإِنَّ وجه المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في أُمور هي:

1. التناسب في التكريم والاصطفاء: فمثلما اصطفى اللهُ سبحانه وتعالى هذه الأَماكن الثلاثة(الشام، سيناء، مكة) وشرفها بالوحي، من بين سائر بقاع الأَرض، فكذلك اصطفى هذا الإنسان من بين سائر المخلوقات وخلقه: (فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.). فالمقسم به والمقسم عليه (الإنسان المكرم) يشتركان في الاختيار والاجتباء والتكريم.
2. التناسب في الهبوط والانتكاس: والعلاقة هنا علاقةٌ عميقة تحتاج إِلى مزيد تأمُّل؛ فالرسالات التي نزلت على الأَنبياء، ومنها هذه الرسالات الكبرى التي نزلت في هذه المواضع الثلاثة جاءت لإِرجاع الناس إِلى الفطرة السليمة، التي فطر اللهُ الناسَ عليها، فمن تمسك بهدي هذه الرسالات بقي في أَحسن تقويم، وسمت روحه،

---

[42] التحرير والتنوير:378/30، وينظر:نظم الدرر : 22/89–91.

[43] ينظر:التبيان في أقسام القرآن:44،والتحرير والتنوير:420/30–422.

[44] التحرير والتنوير:422/30–423.

العددِ 21A ايار 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A May 2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

وارتقى قلبه، فنال الهدى والخيرَ والفلاح في الدنيا والآخرة، ومن تنكَّب عن هدي النبوة، انتكست فطرته، وتحقق فيه الشقُّ الثاني من جواب القسم: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ.) .

3. التناسب في قوله: (وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ.) ففي وصف مكة بـ (الأمين) - أي الآمِن- إشارة لطيفة إلى أنَّ مَن تمسَّك بالدين الذي أُرسل به صاحب هذا البلد الأمين النبيّ محمدٌ ﷺ فهو آمن في الدنيا من التردّي في الضلال، وآمن من السفول في دركات النار في الآخرة.

فبذلك يتّضح لنا أنَّ القسم في هذه السورة ليس قسماً بهذه المخلوقات فحسب، بل هو قسمٌ فيه إشارةٌ إلى تاريخ هداية البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، فالتناسب هنا هو تناسب شَرطيّ؛ فكمال الإنسان بخلقه في أحسن تقويم مشروط باتباعه للأنبياء والمرسلين الذين كانت رسائلهم الكبرى في هذه الأماكن الثلاثة، وبذلك يخدم المُقسَم به الغرضَ العقدي والتربوي للسورة بشكل دقيق محكم.

المبحث الثالث:المناسبة في شكل التركيب القسميّ.

إنَّ من صور التنوُّع في القسم القرآنيّ وفقَ مُناسبة السياقِ التّنوّع في شكل تراكيب القسمِ وصيغه؛ ففي سياقات يأتي القسمُ مُثبَتاً، وفي سياقاتٍ أخرى يأتي منفيّاً(لا أُقسم)، وفي مواضع يُذكر جواب القسم، ومواضع أُخرى يُحذف؛ وإنَّ هذا التلوين الأُسلوبي ليس تنويعاً لغوياً فحسب، بل هو استجابة دقيقة لمقتضيات السياق وحال المخاطب. وسوف ندرس في هذا المبحث دلالات هذا التنوّع وعلاقته بمناسبة السياق،وذلك في مطلبين:

المطلب الأول: بلاغة النفي في القسم (ظاهرة لا أُقسم):

ورد التركيب اللغويّ(لا أُقْسِمُ) في ثمانية مواضع في القرآن الكريم،وهذه المواضع هي:
1-قوله تعالى:(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[النساء:٦٥].
2-قوله تعالى:(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة: ٧٥ – ٧٧].
3-قوله تعالى:(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ.)[الحاقة: ٣٨ – ٤٠].
4-قوله تعالى:(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ. عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ.) [المعارج: ٤٠ – ٤١].
5-قوله تعالى:(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ.) [التكوير: ١٥ – ١٦].
6-قوله تعالى:(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ. وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ. لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ.)[الانشقاق: ١٦ – ١٩].
7-قوله تعالى:(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.) [القيامة: ١ – ٢].
8-قوله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ.) [البلد: ١ – ٤].

وقد أثار هذا التركيب القسميّ بحوثاً كثيرةً وجدلاً طويلاً في كتب التفسير والنحو، وإنَّ دراسة هذه الظاهرة الأُسلوبيَّة في هدي السياق، يكشف عن أسرارٍ بلاغيَّة ودلاليَّة وتناسب دقيق في التعبير القرآنيّ.

-التوجيه اللغوي لـ (لا أُقسم)

لقد اختلف العلماء في دلالة (لا) هنا على أقوال هي:[45]

1. **أنَّ (لا) حرف نفيٍ منقطعٍ عن القسم، وهو ينفي كلاماً سابقاً يُقدَّر بحسب السياق**، وهو ما دلَّ عليه المقام من عنادهم وتكذيبهم وافترائهم، والمعنى: أنَّه قال (لا) ردّاً على ما زعمه المشركون، ثم استأنف القسم فقال:" أُقسم بيوم القيامة".

[45] ينظر :تفسير الطبري:23/146–149، وتفسير الرازي: 29/425–426،والبحر المحيط:10/90–92،وروح المعاني:14/151.

العددِ 21A ايار 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A May 2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

2. **أنّ"لا" حرفٌ زائد فائدته توكيد القسم،** فجيء بهذا الحرف لتقوية الكلام، كما تقول العرب: "لا والله" تريد القسم المؤكد.

3. **أَنَّ "لا" أَصلها لام التوكيد فأُشبعت فتحتها حتَّى صارت ألفاً.**

4. **أنّ"لا" حرف نفي نُفيَ به القسم، أَي لا أُقسمُ،** فهذا الأَمرُ هو أَمرٌ واضحٌ لا يحتاجُ إلى قسمٍ ، وهو أَوضح وأعظم من أَنْ يحتاجَ إلى قسم، فضلاً عن احتياجه لهذا القسم الجليل العظيم؛ وهذا هو الذي نقله ابنُ جرير عن ابن جبير، ورجَّحه الرازي والآلوسيّ وغيرهما من المفسِّرين.

وسنأخذ مثالاً على هذه الظاهرة الأُسلوبية القسم في سورة القيامة لنبحث فيه عن وجه التناسب السياقيّ فيه؛ قال تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ.) [القيامة: ١ – ٤].إنَّ افتتاحَ هذه السورة بالقسم يُشيرُ إلى أَنَّ ما سيأتي بعده هو أمر مهم، لكي تستشرف له نفس المُتلقِّي، وفي كون المُقسَم به هو يوم القيامة براعة استهلال، يتناسب مع مقصد السورة، الذي هو وصف يوم القيامة وما يكون فيها من أهوالٍ، فالمقسم به في هذا السياق هو نفسه المقسم عليه، وعلى ما يكون فيه،وفي ذلك تنبيهٌ على زيادة وضوح دليله، وعلى عظيمِ مكانته ومنزلته عند المُقسِم.[46]

ووجه التناسب السياقيّ في اختيار صيغة هذه الصيغة (لا أُقسم) أَنَّ السورة من السور المكية، وهي تخاطب قوماً ينكرون البعث والنشور ويكذِّبون ما أخبرهم الله عنه، فاستخدام النفي في بداية الكلام يحمل شحنة دلاليَّة حجاجيَّة تتمثَّل في قرع أَسماع المكذِّبين، وجلبِ أذهانهم للتأمُّل فيما يأتي بعد هذا النفي، فكأَنَّه يقول لهم: (**لا** ليس الأمرُ كما تظنون وتزعمون من استحالة مجيء يوم القيامة والبعث بعد الموت)، ثم يقسم بما أَنكروه:(أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

فالتناسب هنا تناسبٌ حجاجيٌّ؛ فلمَّا كان المقامُ مقامَ حجاجٍ وجدال وإنكار، ناسب ذلك المجيء بأداة النفي(لا)، لتهيئة الجوّ العام للتعبير، وتهيئة ذهن المتلقِّي لاستقبال المقسم به والمقسم عليه، فهو تعبيرٌ يناسب سياق الموقف المتمثِّل في جحود الكفار وتكذيبهم. كما أن الجمع بين (القيامة) و(النفس اللوامة) في سياق (لا أقسم) يشير إلى تلازم المحاسبتين- محاسبة النفس اللوامة لصاحبها في الدنيا، ومحاسبة الله للعباد في الآخرة (القيامة)-. والناظر في السياق القرآنيّ قبل القسم وبعده يجد أَنَّ محورَ سورة المدثّر التي قبل هذه السورة هو في ذِكر يوم القيامة، وفي التخويف من ذلك اليوم، وقد أَقامَ اللهُ سبحانه وتعالى في القرآن الكريم البراهينَ القاطعة، والأَدلةَ الساطعة على ذلك اليوم وما فيه من الحساب والجزاء، حتَّى صارت من البديهيات التي لا تحتاجُ إلى قَسَمٍ، ولكنَّ الكفارَ كانوا يكذِّبون بها عناداً واستكباراً ومغالطةً، ولمَّا كان القسم مع العناد لا فائدة فيه للمعاند، ناسب ذلك نفيَ القسم للإشارةِ إلى أَنَّ هذا الأمرَ عنيٌّ عن القسم ولا يحتاجُ إلى تأكيدٍ؛ لظهور دليله، فلا يُنكره إلّا من غالط نفسه وعاند بلا برهانٍ، فقال(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) مع ما في هذا الأُسلوب من التهويل والتعظيم من خلال ذِكر القيامة وإِثباتِ أمرها، وما في القسمِ بالقيامة على مجيئها من الإشارةِ إلى عظمتها وأنَّ مجرّد ذِكرها دليلٌ عليها.[47]

المطلب الثاني: بلاغة الحذف في جواب القسم.

من الظواهر الأُسلوبيَّة في التعبير القرآنيّ حذف جواب القسم، والاكتفاء بأَداة القسم والمُقسم به، ويمكن فهم هذا المحذوف من خلال التأمُّل بدلالة السياق، وهذا الحذف يعدُّ ضرباً من ضروبِ الإيجاز البليغ الذي يفتح آفاقاً عميقةً للمعاني.

ولهذا الحذف في اللغة والقرآنِ الكريم أَغراضٌ منها: التعظيم والتهويل، فيُترك الجواب مبهماً ليذهب ذهنُ السامع كلَّ مذهب في تقدير عظمة الأَمر، ومنها الوضوح والشهرة: إذ يكون الجوابُ معلوماً من سياق الكلام، فيُترك للمُتلقِّي تقديره.

[46] ينظر :التحرير والتنوير :337/29.

[47] ينظر : نظم الدرر :84/21.

Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

ومن سياقات هذه الظاهرة الأُسلوبيَّة قوله تعالى:(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ.بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ.) [ص: ١ – ٢].

فأقسم اللهُ تعالى بالقرآن ووصَفَه بـ(ذِي الذِّكْرِ) ، أَي ذي الشرفِ الكبير والقدْر العظيم، فهو ذو النباهةِ والشرف والموعظة والذكرى،الذي يُذكِّرهم ويذْكرُ لهم جميعَ ما يحتاجون إِليه في معاشهم ومعادهم.[48]

فنجد في هذه الآيات ذِكر أَداة القسم والمقسم به، ولكنَّ جوابَ القسمِ غير مذكور في التعبير؛ وقد دلَّ السياق على أَنَّ جواب القسم يُقدَّر بأَمرين:

الأَول: إِنَّه لمن عند الله، فهو حقٌّ لا ريبَ فيه، ولذلك عجزتم عن أَنْ تأتوا بمثله، أَو بسورة من مثله. وقد دلَّ على هذا التقدير حرف(ص) في بداية السورة؛ فإِنَّ هذا الحرف المقصودُ منه تحدِّي العرب بإعجاز القرآن الكريم، وأَنَّهم يعجزون عن معارضته، مع أَنَّه بلغتهم، وهو مؤلف من حروفهم. فجواب القسم محذوف يدلُّ عليه سياقُ التحدِّي، فالمقسم به يدلُّ على أنَّ المتحدَّى به معجِز وحقيقٌ بالتعظيمِ،أَي: أُقسم بالقرآن إِنَّه لَمِن عند الله ومعجز وواجب العمل به وإِنَّه لحقيق بالتعظيم.

الثاني:إِنَّه لَذِكْرٌ، وقد دلَّ على الجواب المحذوف الإِضرابُ الذي في قوله تعالى:(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ.) بعد أَنْ وصفه بـ(ذِي الذِّكْرِ) ، فإِنَّ هذا الوصفَ يدلُّ على أَنَّه ذِكر للقلوب وموقظ للعقول فكأَنَّه قيل: إِنَّه لَذِكْر عظيمٌ، ولكنَّ الكافرين في عزة وشقاق، يجحدون أَنَّه ذِكْرٌ، ويقولون فيه الأَقاويل، فجواب القسم المحذوف قد دلَّ عليه السياقُ اللفظيُّ والمقاميُّ.

والمناسبة السياقية في هذا الحذف هي الإِعراض عن ذِكْرِ جواب القسم لوضوحه إِلى ما هو أَهمّ وأَجدر بالعناية والذِّكْرِ، وهو صفة الذين كفروا وكذبوا القرآن شقاقاً وعناداً منهم؛ فلمَّا كان السياقُ في الحديث عن استكبارهم عن الحقِّ وعنادهم ناسب حذف جواب القسم إِعراضاً عنهم، فافتراؤهم وتكذيبهم لا يحتاج إِلى ردٍّ؛ فإِنَّ القرآنَ الكريمَ ذا الذكر لا يحتاج إِلى الاستدلال على إِثبات صدقه، فمجرد سماعه يُعدُّ دليلاً على أَنَّه من عند الله.

ومن سياقات هذه الظاهرة الأُسلوبية أَيضاً القسمُ في سورة (ق)، إِذ قال تعالى: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.) [ق: ١ – ٣].

فأَقسم بالقرآن ووصفه بأَنَّه مجيد أَي: واسع المعاني، بليغ المباني، كثيرُ البركة، فإِنَّ المجدَ هو عظمةُ الأَوصافِ وسِعتها، ولا يوجدُ كلام هو أَحقّ بهذا الوصف من القرآن الكريم.

فذَكَرَ المقسم به، ثمَّ حذف جواب القسم، ولكنَّ السياق اللفظيّ والمقاميّ يدلُّ على المحذوف، ومناسبة ذلك أَنَّ المشركين كانوا على علمٍ بأَنَّ هذا القرآن حقٌّ من عند الله؛ لِمَا اشتمل عليه من البلاغةِ والإِعجازِ في أَلفاظه ومعانيه، قال ابنُ عاشور:" وجواب القسم محذوف لتذهب نفس السامع في تقديره كُلَّ طريقٍ ممكن في المقام فيدل عليه ابتداء السورة بحرف ق المشعر بالنداء على عجزهم عن معارضة القرآن بعد تحديهم بذلك، أو يدل عليه الإضراب في قوله: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم.والتقدير: والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق... أو يقدر الجواب: إنه لتنزيل من رب العالمين، أو نحو ذلك ".[49]

فهذا الحذف يتناسبُ مع السياق، إِذ إِنَّ وصفَ القرآن بأَنَّه مجيد يدلُّ على رفعته وكماله، وفي حذف الجواب إعراض عن مجادلة المكذبين، وإِشارة إِلى أَنَّ ذلك لا يحتاج إِلى دليل، فَهُم يعلمون صدقه.

ويظهر من هذا المبحث أَنَّ نفيَ القسم، وأَيضاً حذف الجواب، هما من صور التناسب السياقيّ في التعبير القرآنيّ، وأَنَّ ذلك يتناسب مع حال المخاطَب، ومع مقصد السورة وغرضها.

الخاتمة وأَهم نتائج البحث:

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين.

---

(48) ينظر :إرشاد العقل السليم:213/7، وتيسير الكريم الرحمان:709.

(49) التحرير والتنوير:277/26.

أمَّا بعد: فبعد هذه الرحلة في رحاب بنية القسم في القرآن الكريم، لا بدَّ أنْ أُدوّن هنا أَهمَّ النتائج العلميَّة التي توصَّلتُ إليها، والتي تُعدُّ خلاصةً لهذا البحث، وهي كما يأتي:

- إنَّ القسم في القرآن الكريم ليس توكيداً لغويَّاً فحسب، بل هو سمة أُسلوبية ترتبط ارتباطاً دقيقاً بمقصد السورة وسياقها العام.
- إنَّ اختيارَ المُقْسَم به يأتي تبعاً لمناسبة السياق، وإنَّ العلاقةَ بين المُقسَم به وجوابه هي علاقة تَناسب، تتنوع بتنوّع السياق.
- تنوَّعت أَنماطُ التناسب بين المُقسَم به وجوابه، وهذا التناسب يمكن إرجاعه إلى:

  أ- التناسب التضادي والتقابلي: كالقسم في سورة الضحى، وفي سورة الليل.

  ب- التناسب التصاعدي والتدرج المكاني:كالقسم في سورة التين.

  ت- التناسب الاستدلالي بين المحسوس والغيبي: كالقسم في بداية سورة الذاريات.

- يساهم القسم مساهمةً فعالة في الوحدة الموضوعية للسورة؛ إذ يكون بمثابة خيط دلاليٍّ ناظم يربط أوَّل الكلام بآخره، ويربط المقدمات بالنتائج.
- إنَّ النفي في القسم قد رُوعي فيه التناسب السياقيّ.
- إنَّ جوابَ القسم يحذف في بعض المواضع لمراعاة السياق اللفظيّ والمقاميّ للتعبير.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير، المكتبة العلمية – بيروت،ط1 ،1979م.
- سراج المريدين في سبيل الدين، أبو بكر بن العربي، دار الحديث الكتانية-المملكة المغربية،ط1 ، 2016م.
- التبيان في أقسام القرآن،ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، لبنان،ط1 ،د.ت.
- المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط1، 1996م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس،ط1، 1984م.
- مجمل اللغة،أحمد بن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط1، 1979م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار الفكر ،بيروت،ط1، 1979م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي – بيروت،د.ت.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي،دار الفكر – بيروت،1420ه.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، مكتبه السنة – القاهرة،ط2003،2م.
- شرح شافية ابن الحاجب، محمد بن الحسن الرضي الإستراباذي، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان،ط1975،1م.
- دلالة السياق في التراث وعلم اللغة الحديث، د.عبد الفتاح عبد العليم البركاوي،1991م،لم يذكر الناشر والمطبعة.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،د.ت.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي،دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1- 1418هـ.
- البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني،د. تمام حسان، عالم الكتب- القاهرة، ط1،1993م.
- مفاتيح التفسير،أ.د.أحمد سعد الخطيب،دار التدمرية، المملكة العربية السعودية،الرياض،ط1،2010م.
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي،دار إحياء التراث العربي – بيروت،ط3،1420هـ.
- المفردات في غريب القرآن،الراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت،ط1،1412ه.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني،الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، دار الهداية،1965م.
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي،دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه،ط1،1957.
- أساس البلاغة،أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري(ت: 538هـ)،دار الكتب العلمية،بيروت– لبنان،ط1، 1419 هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي،مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1 ،1420هـ.
- الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون،لأبي العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار القلم، دمشق،د.ت.
- الكتاب،عمرو بن عثمان بن قنبر،أبو بشر،سيبويه، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط3،1408هـ.
- الإتقان في علوم القرآن،عبد الرحمن بن أبي بكر،جلال الدين السيوطي،الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، عبد الرحمن بن أبي بكر،جلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة التوفيقية – مصر،د.ت.
- السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية الحديثة،سعد بن محمد بن سعد الشهراني،كرسي القرآن الكريم وعلومه،جامعة الملك سعود،ط1، 1436ه.
- إمعان في أقسام القرآن،الفراهي،المكتبة السلفية ومطبعتها.
- دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير،دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، د.عبد الحكيم بن عبد الله القاسم،دار التدمرية،المملكة العربية السعودية ،الرياض، ط1، 1433ه.
- دلالة السياق في التراث وعلم اللغة الحديث،د.عبد الفتاح عبد العليم البركاوي،لم يذكر الناشر،1991م.
- الجامع لأحكام القرآن ،لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي،دار الكتب المصرية– القاهرة،ط2، 1384هـ.
- الدلالة السياقية عند اللغويين،أ.د.عواطف كنوش المصطفى،دار السياب للطابعة والنشر والتوزيع،لندن،ط1،2007م.

- المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية بالقاهرة،(إبراهيم مصطفى/أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/محمد النجار)،مكتبة الشروق الدولية،ط4، 1425هـ.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان،نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري،دار الكتب العلميه– بيروت،ط1، 1416هـ.
- التَّفْسِيرُ البَسِيْط،أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري،عمادة البحث العلمي-جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1430هـ.